التطور الإعصاري للرأسمالية... العصر الحديث بين فكّي شموليتين

نظام دمج اقتصادات العالم بمنظومة مترابطة فيما فتت البنى السياسية

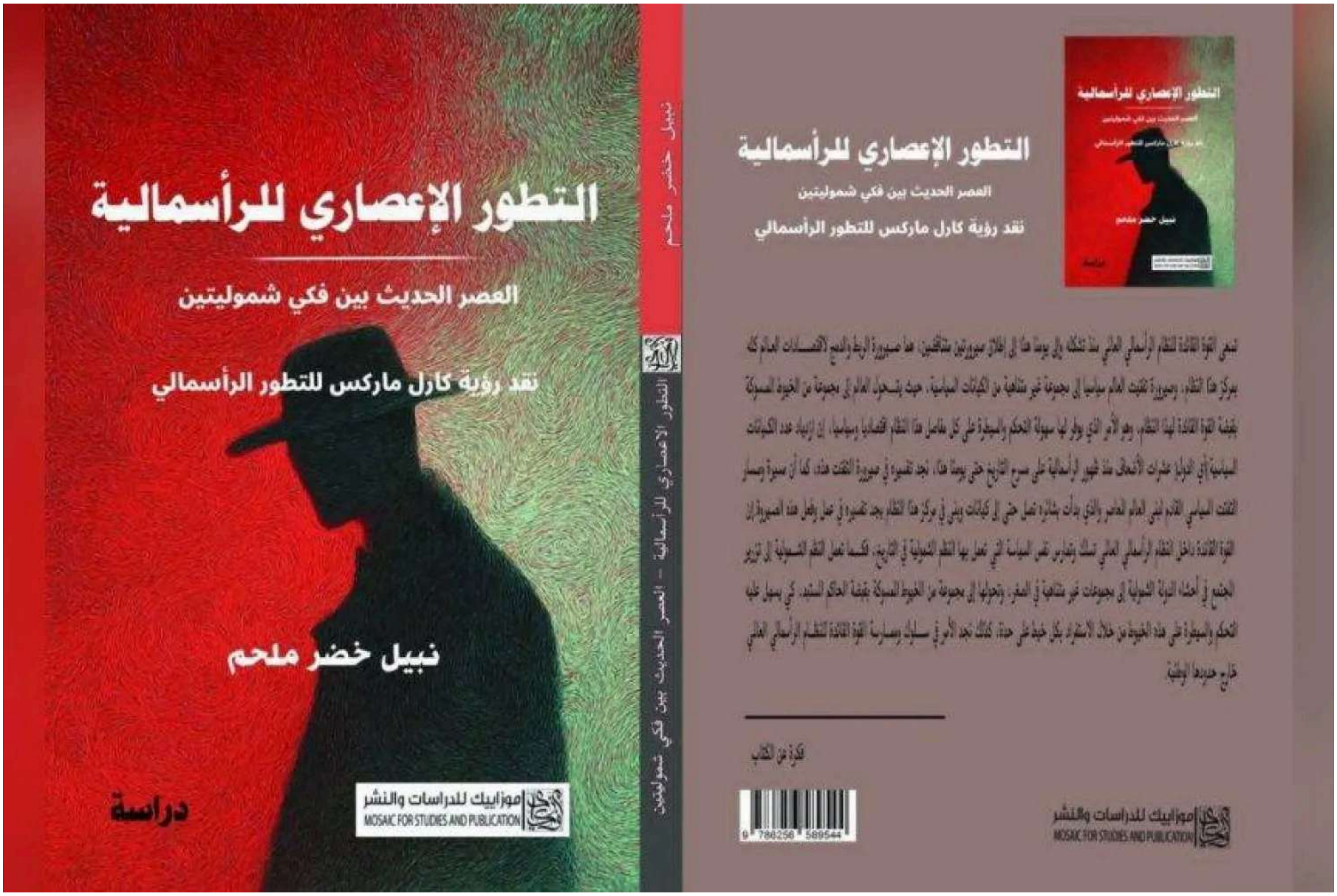

دمشق: «الشرق الأوسط»

نُشر: 17:27-22 أبريل 2026 م . 05 ذو القِعدة 1447 هـ

يسلط كتاب «التطور الإعصاري للرأسمالية... العصر الحديث بين فَكّي شموليتين» الضوء على الطبيعة المركبة للنظام الرأسمالي العالمي، متتبعاً تناقضاته البنيوية وآليات اشتغاله التي تتجاوز الاقتصاد إلى السياسة والآيديولوجيا، في محاولة لفهم أعمق لمسار الهيمنة العالمية وتشكلاتها المعاصرة.

ينطلق المؤلف نبيل خضر ملحم، في كتابه الصادر حديثاً عن «دار موزاييك للدراسات والنشر» في دمشق، من فكرة محورية مفادها بأن النظام الرأسمالي العالمي أَطلق عمليتين متناقضتين في آن معاً، تتمثل الأولى في دمج اقتصادات العالم ضمن منظومة واحدة مترابطة، فيما تقوم الثانية على تفتيت

البنى السياسية إلى كيانات متعددة، بما يسمح للقوة المهيمنة بإحكام السيطرة على مفاصل الاقتصاد والسياسة.

ويشير المؤلف إلى أن هذا التناقض الظاهري ليس خللاً في النظام، بل هو أحد شروط استمراره؛ إذ يتيح، من جهة، توسيع نطاق السوق العالمية، ومن جهة أخرى يضعف الكيانات السياسية؛ مما يسهل إخضاعها لمنطق الهيمنة.

يتوقف ملحم عند الفوارق بين «مركزية التفوق الثقافي» التي سادت لدى بعض مفكري «عصر الأنوار»، و«مركزية التطور التاريخي» المرتبطة بالفكر الماركسي، موضحاً أن الاختلاف بينهما يكمن في تفسير أسباب التفاوت بين الشعوب، بين ما يُعزى إلى عوامل ثقافية وعرقية، وما يُفسر بعوامل اقتصادية تاريخية.

كما يعيد الكتاب قراءة أفكار الفيلسوف كارل ماركس، مشيراً إلى ما يعدّها «أوهاماً» رافقت تصوّراته بشأن توسّع النظام الرأسمالي، لا سيما الاعتقاد أنه سيؤدي إلى إعادة تشكيل العالم بصورة متجانسة.

ويرى أن التطورات الواقعية أظهرت مساراً أشد تعقيداً، تمثّل في بروز تشوّهات بنيوية عميقة داخل مجتمعات الأطراف، بدلاً من تحقيق ذلك التجانس الذي افترضته تلك الرؤى النظرية.

يطرح الكتاب تصوراً للرأسمالية بوصفها قوة تتجاوز بُعدها الاقتصادي، لتغدو نظاماً شمولياً عابراً للقارات، يعمل عبر أدوات متعددة تشمل الاقتصاد والسياسة والآيديولوجيا؛ بهدف احتكار المجالات الحيوية داخل المجتمعات.

ويرى المؤلف أن هذا الاحتكار يؤدي إلى تعطيل مسارات التطور المستقلّ للدول، حيث تُوجَّه بنيتُها الداخلية إلى ما يخدم استمرارية النظام العالمي القائم، ويحدّ من قدرتها على بناء نماذج تنموية مستقلة.

في سياق تحليله العلاقة بين المراكز والأطراف، ينتقد ملحم مفهوم «التبعية»، عادّاً أنه لم يعد كافياً لتفسير طبيعة الهيمنة في النظام الرأسمالي المعاصر، ويقترح بديلاً مفاهيمياً يتمثل في «الابتلاع»، الذي يصف عملية استيعاب البنى الضعيفة داخل النظام، ثم تفكيكها وإعادة إنتاجها بما يخدم القوى المهيمنة.

ويؤكد أن هذا المفهوم يعكس بشكل أدق آليات السيطرة المعاصرة، التي لا تكتفي بإبقاء الأطراف في حالة تبعية، بل تعمل على إعادة تشكيلها بنيوياً لتصبح جزءاً وظيفياً من منظومة الهيمنة.

قراءة نقدية في مسار عالمي

وفي تصريح لـ«وكالة الأنباء السورية (سانا)» الرسمية، أوضح المؤلف خضر أن الكتاب يمثل محاولة لفهم الطبيعة الحقيقية للنظام الرأسمالي العالمي، بعيداً عن التفسيرات المبسطة التي تختزله في أنه مجرد نظام اقتصادي، مشيراً إلى أنه منظومة شمولية قادرة على إعادة تشكيل العالم سياسياً واقتصادياً.

وأضاف أن «الرأسمالية لا تكتفي بدمج الاقتصادات، بل تعمل في الوقت نفسه على تفتيت البنى السياسية»، عادّاً هذا التناقضَ أحدَ مرتكزات استمرارها، كما شدد على أن مفهوم «التبعية» لم يعد كافياً؛ مما دفعه إلى تقديم مفهوم «الابتلاع» بوصفه تعبيراً أدق عن طبيعة العلاقات داخل هذا النظام.

ويقدم الكتاب، في مجمله، قراءة نقدية لمسار الرأسمالية المعاصرة، كاشفاً عن آلياتها المركبة في التحكم بالعالم، ومثيراً تساؤلات بشأن مستقبل النظام الدولي وإمكانات تجاوز بنيته الراهنة.